الحياة المصرية القديمة

يعتبر الدين أهم عناصر الحضارة المصرية ولم يخطىء هيرودوت حينما قال « المصريون قوم يخافون الله أكثر من أى شعب آخر » ولا غرو فى أنه لم يكن هناك أقوي من الدين فى حياة المصرى القديم ، لقد شغل تأثيره جميع نواحى النشاط حيث غذى خيال الانسان بما قدمه من صور عن العالم . وحكمه بالمخاوف التى أوجدها ، وكان مرشداً لتصرفاته ، وتقويما لزمنه بما نظمه من أعياد ، وكذلك أوجدت عاداته الخارجية التعليم وكانت الدافع نحو التطور التدريجى للفن والادب والعلم

من الراجح أن عبادة الاسلاف كانت أول مظاهر الدين عند قدماء المصريين ، وعند ما ارتقى التفكير المصرى مسح على هذه العبادة شكلا روحياً — كانت عبادة المومياء شائعة فى مصر سواء كانت لقريب مات منذ زمن أو لملك بعيد القدم لذلك كان الاله غالبا هو الملك الميت ، والملك هو الاله الحي ، وقد ظل المصريون يحتفظون بأجساد موتاهم ويعبدونها تحت عناية الكهنة ،متخذين لذلك مراسيم مختلفة لا حصر لها

والصبغة الاساسية لسواد الالهة المصرية انها كانت آلهة محلية بحتة ، فكل مديرية وكل مدينة كان لها آلهتها . واهمية الاله تتبع أهمية المدينة التى يعبد فيها

كانت الالهة فى الغالب تكون ثالوثا « زوج وزوجة وولد » فاذا مات الاثنان الاولان بقى الثالث واتخذ له من المعبودات الاخري زوجة وأنتج منها ولدا وهلم جرا ، وبذلك صارت سلطة الاله منتقلة من معبود الى آخر حتى لا تضيع . وعلى كثير من الآثار عبارة صريحة تدل على ذلك وهى « هو يخلق أعضاءه وكل عضو منها اله » وبهذه الطريقة كثر عدد الآلهة

وللآلهة مراتب بعضها فوق بعض . وكان المفترض أنها تعمل أحيانا معاً تبعاً للظروف واختصاصاتها ، فكان الناس يدعونها معاً أو يخلطون بين أسمائها ، غير انه لم تكن كثرة الآلهة دليلا على أنها كانت موضع عبادة من الجميع ، لانه لم يكن لكثير منها وجود الا فى الاساطير ، كان المصريون يعتقدون بقلة الفروق بين البشرية والالوهية ، لذلك كانت بشرية جميع الآلهة من الامور العادية جدا عند الكهنة والشعب

كانت مهمة كل معبود من المعبودات المحلية تنحصر فى الأصل فى حماية بلدته ، فلا سلطان له خارج حدودها ، بيد أننا نجد ان طائفة كبيرة من هذه المعبودات كانت لها مزايا خاصة ، ما لبث أن مدت نفوذها وراء مناطقها ، مثال ذلك ، أن آمون ، اله طيبة ، كان أيضا إله الخصب

والنماء فى مصر كلها . والمعبود « من » إله فقط ، كان من مميزاته حماية أسراب الماشية والسبل والقوافل ، وكذلك المعبودة « سخت » آلهة منف تعتبر آلهة الحرب التى تنكل بالعدو وتسحقه والآلهة « هاتور » معبودة « دندرة » كانت تمثل آلهة الحب والفرح

وفى كثير من الأحيان عزيت لهذه الآلهة المحلية علاقات بقوى الطبيعة ، وبخاصة الاجرام السماوية ، فالمعبود توت ، إله الأشمونين كان يعتبر إله القمر ، وكان الاعتقاد السائد انه هو الذى حدد فصول السنة ، ووضع نظام الطبيعة ، ولهذا اعتبر أيضا مخترع الكتابة واللغة ، وخالق المواقيت والمقاييس ، وإله العلم والعرفان

وهناك ظاهرة لها أهميتها فى الديانة المصرية القديمة وهى أن أغلب حيوانات مصر كانت مقدسة بالنسبة لكل إله ، وكان الحيوان المختار كرمز يمتاز ببعض مظاهر وظيفة الاله أو يشبهه . فكان الصقر رمزاً لاله الشمس ، وكانت البقرة مقدسة للآلهة هاتور ، والقط للآلهة باست ، والضفدع للاله هكت . وكانت الالهة تمثل أحيانا بالاجسام البشرية ورأس حيوانها المقدس ، وتمثل أحيانا بالحيوان كله . وقد نشأ هذا التقديس عن العقيدة الطوطمية التى سادت جميع عصور ما قبل التاريخ ، فرغم أن كثيرا من المدن كانت تقوم بعبادة الاسلاف ، إلا أنها ظلت تعتقد فى انتسابها إلى أحد الحيوانات كالصقر أو العقرب ، فكانت فى أول الأمر تستأنس وتدلل وتحترم هذه الحيوانات ، لتضحى بها على قبور أسلافها ، ثم تطورت مكانة هذه الحيوانات بسبب فوضى الأفكار وانتقلت من التقديس إلى التأليه ، حتى أصبحت تشارك أرواح الأسلاف والالهة الناشئة عنهم ، فى العبادات المقدسة التى تؤدي اليهم

وكان هناك نوع ثالث من المخلوقات المقدسة أو شبه المقدسة ، وهى آلهة العناصر أى آلهة الطبيعة وأهم هذه الالهة الشمس « رع » ومنها شو وتفنوت ونوت وسب ، الا أنه لم يكن لها دور مهم فى عبادة الشعب ، غير انها لعبت دوراً عظيما فى جميع الأساطير المتعلقة بخلق العالم

وتتلخص أسطورة المصريين عن نشوء العالم فى أن الكون كان فى أول الامر لجة من المياه يحيط بها الظلام وكانت الشمس مختفية فى وسطها . ثم ظهرت الشمس فخرجت الارض والسماء من الماء مختلطين بعضهما ببعض وممتدة أحداهما على الاخرى ، فكان رع الاله الاول ، وقد صدرت منه اشارة فتولد عنها زوج من الالهة ، وهما شو وتفنوت فدخلا فيما بين الارض والسماء ، وفتقا رتقهما ، ثم رفعا السماء على أذرعهما وأبقاها معلقة فى الفراغ ، وبذلك ظهر زوج ثان من الالهة وهما سيبو أي الارض ونوت أى السماء

وكانت الدنيا التى أوجدها هؤلاء الالهة الخمسة أشبه بصندوق رباعى الشكل يكتنفه الماء ، قاعدته الارض وغطاؤه السماء وجدرانه الجبال الشامخة التى تتكىء عليها السماء . ويجري نهر عظيم على طول هذه الجدران تحت السقف السماوى بقليل ويتراءى هذا النهر للأبصار فى جهة الجنوب ثم يسيل فيما بين الجبال وينساب فى مجرى طويل تحت الارض ويسبح فيه على الدوام زورق فيه الشمس ، ويخرج هذا الزورق فى كل صباح من المشرق الى الجنوب ، وترسل الشمس الانوار إلى مصر وتدخل كل مساء فى الجبل من جهة الغرب ، ثم تولد من الارض والسماء أربعة آلهة ، أولهما أوزوريس وايزيس ، اتما تكوين العالم وجاءا بالحضارة والمدنية ، وثانيهما سيت ونفتيس ، أتيا بالشر والموت

كان المصريون يرون الحياة بعد الموت أهم بكثير من الحياة الدنيوية ، حتى انهم كانوا يقومون بمعدات لا حصر لها نحو أمواتهم ، مشيدين لذلك مقابر خالدة على غرار مساكنهم حيث تقضى المومياء الجزء الاعظم من وجودها ، وذلك لانهم كانوا يعتقدون أن لكل انسان قرينا « كا » فاذا مات يخلفه قرينه فى حياته ، وكان القبر يدعى قديما بيت القرين فاذا انفصلت الروح عن الجسد تلحق بأوزوريس تحت الارض حيث تغيب الشمس كل يوم

هناك يتصدر أوزوريس فى محكمته وقد أحاط به الالهة ، فيؤتى بالروح أمامهم ، تحاسب عما اقترفته فى الحياة ، وتوزن أعمالها بميزان الحق وتطلب شهادة القلب ، فالنفس الشريرة تعذب قرونا ثم تهلك والنفس الطيبة تطير أحقابا ، وبعد محن كثيرة تنضم الى زمرة الارباب وتفنى فيهم

وتستطيع الروح فى خلال هذه المدة الدخول فى الجسد لتستريح ، ولذا اقتضى أن يظل الجسم سليما ، ومن أجل ذلك كان التحنيط ، وكانت التماثيل الكثيرة المملوء بها القبر ، حتى انه فى حالة فناء المومياء يمكن الروح أن تجد مأوى فيها

وكان يوضع بجانب المومياء كتاب الموتى ، وهو أعظم وأول كتاب عرفه التاريخ ويحوى على ماينبغى للروح أن تقوله فى العالم الثانى دفاعا عن نفسها أمام محكمة أوزوريس ، إلا أن ترجمة هذا الكتاب من الصعوبة بمكان . والفقرات التى ترجمت بدقة منه على درجة رائعة من الجمال اذا قورنت بأقوال الأديان الاخرى ، ولكن الجزء الكبير من الكتاب مبهم ، والقليل الذى تمكنا من معرفته عن نفسية المصريين الدينية يعتبر أشوق جانب فى دراسة الديانة المصرية ، ومع ذلك فليس فيه الكفاية لمن يريد تنسيقه وفق نظام محدود

قلنا أن الأموات كانت تحت حماية أوزوريس ولكن سلطته لم تكن مطلقة فى أول الأمر ،

فقد كان كوكاريس اله الموتى بمنفيس وروب — وات باسيوط ، إلا أن هذه الآلهة أخذت تفسح مكانها لأوزوريس على توالى الزمن

كان أوزوريس أعظم الالهة على الاطلاق، وكانت ديانته عامة فى وادى النيل، وقد كان على الارجح ملكا قديما جدا تحول الى اله محلى ببلدة نيس أو تينيس ، ولما كان مينا ينتسب لهذه المدينة فان حكمه لم يقتصر على توحيد مصر فحسب بل على توحيد آلهتها أيضا ، و بعبارة أخرى عظم أوزوريس بارتقاء مينا ، وتتلخص أهم أسطورة عنه ، والتى كان يعتقد بها أغلب المصريون ، أنه كان متزوجا باخته ايزيس وحاكما على وادى النيل ، أوجد جميع الاختراعات التى جعلت الانسان قادرا على احتمال الحياة . نظم حقوق الملكية ورتب العائلة ووضع الشرائع وعلم فنون الصناعة والزراعة ثم قتله أخوه سيت أو تيفون كما سماه الاغريق ، وقطع جثته الى أشلاء القاها بانحاء مصر المختلفة ، فجمعتها ايزيس وحنطتها فكانت أول مومياء ، ثم تولى سيت مكانه ، ولكن لم يمض عليه سنون قليلة حتى هاجمه ابن أخيه هورس واضطره لان يتنازل له عن أرض الدلتا وأن يبقى لنفسه الوادى الكائن فيما بين ضواحى منف ومدينة اسوان ، ومن ذلك الوقت لم يبق للعالم دولة واحدة . ولما انقسمت مصر الى مملكتين بارحها أولياء سيت واشياعه وانتشروا فى البلاد المجعلة بها ، ثم حكم بعد هورس عائلتان الهيتان من طبقة ثانية ، وبعد ذلك صعد الاله الى السماء وقام الناس مقامهم فى ولاية الأحكام ، فجاء مينا وأسس أول دولة بشرية

وفى قصة أوزوريس وايزيس تفسير لكثير مظاهر الحياة كما تصورها قدماء المصريين ، فاوزوريس هو اله العالم الأخروي الاسفل واله المحصول والنهر واهب الحياة والخصب . يرمز فى موته و بعثه الى الزرع الذى تدفن بذرته فى الارض ثم تنمو وتحصد ، ويفسرون تقطيع جسم أوزوريس ودفن اجزائه فى أنحاء البلاد ببعثرة الحبوب وزرعها فى التربة ، أما سيت اله الظلام فيرمز أيضا الى الصحراء القاحلة عدوة الخصب والنماء ، وصراعه مع ايزيس هو الصراع بين الخير والشر

والآن بعد أن ألممنا بنشوء وتطور الديانة المصرية نلقى نظرة سريعة على الصلة العظيمة التى كانت بينها و بين السياسة

كان رع الها محليا بعين شمس ، فلما اتحدت مصر سياسيا ، أصبح رع أعظم الآلهة وظل ملقبا فى أثناء الاسر الست القديمة بأبى الالهة جميعا ، وفى الاسرة الرابعة وصل الى درجة عظيمة من الاهمية والنفوذ أصبح معها ملوك الأسرة الرابعة ينسبون انفسهم اليه ، كما يتجلى ذلك فى اسمائهم مثل خفرع ومنقرع ، وذلك بالطبع اشارة الى الطبقة الالهية التى كان يتمتع بها ملوك مصر

وظل نفوذ رع عظيما فى الاسرة الخامسة ثم سادت الفوضى بعد الاسرة السادسة وخرج

امراء الاقاليم على سلطة الملك ، واستقلوا بالشأن فى أقاليمهم ، مما أثر فى مركز رع . واستمر الحال على ذلك حتى الأسرة الحادية عشرة ، التى أصبح فيها امراء طيبة ملوكا لمصر ، فصار آمون اله طيبة المحلى أقوى الهة مصر وأكثرهم مجدا . وظلت عظمته فى ازدياد حتى تولى الملك فى عهد الاسرة الثامنة عشر امينوفيس الرابع

كان امينوفيس الرابع شديد الولع بالمسائل الفلسفية والدينية . أراد أن يعتنق المصريون دينا واحدا . والها واحدا هو الشمس . أوهو ما وراء الشمس من قوة هائلة مختفية عن الأنظار . إلا أن الدافع الحقيقى الذى جعل امنحتب الرابع يقوم بتلك الثورة الدينية هو رغبته فى التخلص من نفوذ كهنة امون الذين أخذ نفوذهم يطغى على نفوذ الفراعنة . حتى أصبحت الاموال التى تجبى للكهنة باسم المعابد والمعبودات تؤثر على الايراد الذى يجبى لخزانة الدولة

يضاف الى ذلك أن جعل مصر امبراطورية يمتد حكمها الى شعوب مختلفة لايلائمها أن تتعدد فيها المعتقدات الدينية وتتعدد المعبودات . بل الذى يلائمها ويوحد بينها جميعا هو أن يكون لها معتقد دينى واحد ومعبود واحد . ولم يكن هذا المعبود فى نظر امينوفيس الرابع غير القوة التى وراء الشمس والتى يصدر عنها النور والحرارة والحياة الى جميع أنحاء العالم . فهى لهذا جديرة بأن تكون معبودا للشعوب جميعا

حاول أمينوفيس أن يقطع كل صلة تربطه بالعبادة القديمة فغير اسمه من أمينوفيس إلى اخناتون ، ومسح اسم أبيه من المعابد المصرية حتى لا يرى كلمة آمون على جدرانه ، كما أنه جعل يكافىء كل من اتبع دينه من ضباط الجيش وموظفى الحكومة بشتى الهدايا ويخلع عليهم أرفع الرتب

فشلت الثورة الدينية التى قام بها اخناتون فى نهاية الامر لسياسة العنف والشدة التى اتبعها ولم تكن العقول مستعدة لقبولها ، كما ان هذه الثورة لم ترتكز الا على شخص الملك . وعلى ذلك فلم تذهب سدى . فقد كان لها أثر كبير فى نبذ القديم فى الدين . وتوخى الحرية فى الاعتقاد مما ساعد على عودة أهمية رع ولو أنه كان أقل شأنا من آمون باعتبارهما إله واحد « آمون — رع » الا أن اسم رع كان يتبع باسم أمون لا يسبقه

وفى أواخر عهد الدولة الحديثة حينما كانت البلاد المصرية على اتصال بغربى آسيا ، دخل البلاد طائفة كبيرة من الآلهة الاجنبية وقد وجدوا مكاناً سهلا وصدراً رحبا من الاجانب الذين كانوا يقطنون مصر إذ ذاك بل من المصريين انفسهم أيضا ، ومن أهم هذه الآلهة بعل الذى اعتبر محل سيت ، وعبده فى شكل الحيوان الهائل الذي يمثل ذلك المعبود . وعند ما أخذت عرى المودة بين مصر وسوريا وفلسطين فى الانحلال تدريجيا تدهورت عبادة الاله سيت لانه كان ولى الاسيويين

واعتبره المصريون حامى أعدائهم ، ولم يقتصر الامر على ذلك بل أخذت الكهنة تصوره بشكل بارز الدور المعزو اليه فى قصة أوزوريس وأصبح يعتبر فى نظرهم أساس كل شر ، فانه هو الذى ذبح أوزوريس . واشترك فى نضال عنيف مع هورس المنتقم لأبيه ومن ثم أصبح خصم إله الشمس ، وممثل الظلام ورب القحط والصحراء والمهلك لكل شىء حى ، وكذلك صار عدوا لكل خير ، وشيطانا بين الآلهة المصرية ، ثم انتهى الامر باخراجه من بين المعبودات المصرية فبطلت عبادته ومحى اسمه وصورته أينما وجدا

وكان إبعاد سيت من بين المعبودات المصرية آخر مظهر من مظاهر التحمس عند قدماء المصريين للمحافظة على ديانتهم التى كانت وقتئذ فى النزع الأخير ، إذ بانحطاط شأن طيبة حاضرة البلاد تدريجا بعد طرد ملوك النوبة ، أخذت شهرة أمون تتلاشى باستمرار ، ثم انتقل مقر الملك إلى الشمال وتحول معه كذلك محور سياسة البلاد فنتج عن ذلك أن آلهة الدلتا المحلية أمثال المعبودة « نيت » الهة صا الحجر وباستت معبودة بوبسطه والمعبود « انوبيس » وبخاصة الاله اوزوريس وأسرته كل هؤلاء أخذت تعظم مكانتهم ويكبر شأنهم باستمرار

وإن ماذكرناه عن ديانة قدماء المصريين يوحى إلى القارىء بأنهم لم يعرفوا التوحيد قط . والحقيقة أنهم اعتقدوا أن هناك إلهاً واحدا عظيما ولكنهم عجزوا عن وصفه أو عن تعيين مكانه وذلك لأن العقل الانسانى لم يكن يستطيع التفكير فى أى شىء مجرداً عن فكرة الزمان والمكان ولذلك كانت فكرة الآلهة المحلية وآلهة العناصر ملائمة لطبيعة العقل الانسانى

تثبت أغلب النصوص الدينية التى وصلتنا من مصر القديمة أنه كان للمصريين فكرة سامية عن الله ، وقد أطلقوا عليه كلمة نيتر ، وكانت هذه الكلمة تعبر عن نفس الفكرة التى تقول بها اديان التوحيد ، كانت تعبر عن القوة التى تسير كل شىء ، لقد كانت فكرتهم خالية من أى تجسد إنسانى لله

والواقع أن المصريين ابتدأوا منذ عصر الأسرات يكونون فكرة ضعيفة عن خالق عظيم هو الذى سموه على الأرجح « بوتى » والذى كان يختلف اختلافا عظيما عن الآلهة المحلية وعن كل المخلوقات التى اعتبرت آلهة . اعتقدوا أنه قادر ، خالد ، عادل ، بار ، ولكنهم شعروا أنه عظيم جداً وعلى مدى بعيد من هذا العالم لدرجة يضعف بجانبها اهتمامه باقدار الناس . لذلك كان الوصول اليه ميسورا بمعونة آلهة القرية أو القبيلة لأنها كانت صديقة الناس وأقرب منهم إلى الاله العظيم

وفى كثير من أناشيد المصريين الدينية أقوال صريحة تبرهن على توحيدهم ، فمنها ضمن نشيد للاله رع . « أنت الاله الواحد الذى وجد منذ الخليقة » و « أنت الواحد الأحد » وضمن نشيد لآمون رع « أيها الواحد خالق كل شىء » و « ياكبير الآلهة الواحد الأحد الذى لاثانى له »

و « الملك الواحد بين الآلهة » ومنها « هو الموجد لكل مايكون أما مالم يكن فهو فى مكنون علمه » ومنها « الأزلى الذي لاحد له » ومنها « لاتدركه الأبصار ، سميع لمن يتضرع اليه »

ولو أن مصر ظلت بعيدة عن الانقسامات الداخلية ودخول العناصر الأجنبية لبلغت الوحدانية فيها مابلغته فى الأديان الجديدة الناشئة ، ولكن الدين كان فى مصر مرتبطا بالسياسة فلما ضعفت الوحدة السياسية ضعفت الآلهة وكثرت السحرة وحلت الخرافات محل الدين ، ولكن العقيدة المصرية التى كونتها آلاف السنين لم تذهب سدى فقد انتقل هذا التراث الى الديانة اليهودية ومنها إلى باقى الأديان

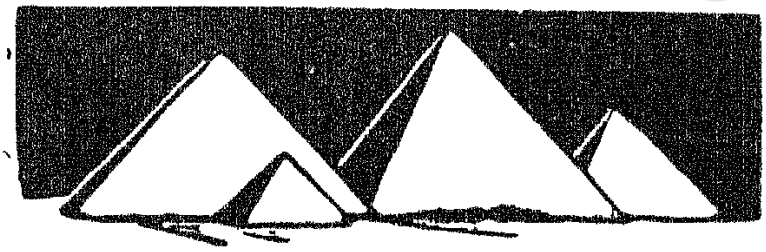

obeikandl.com